تصحيح لقراءات خاطئة على بعض العمائرالدينية العثمانية في دمشق

د.محمد السيد البسطويسي*

تعد النقوش الكتابية من أهم العناصر الزخرفية التي اهتم بها الفنان المسلم فأولاها رعاية خاصة في تزيين المنشآت المعمارية المختلفة على مر العصور سواء كانت جوامع أو زوايا أو مدارس أو تكايا , ولم يأتِ هذا الإهتمام تكلفاً من الفنان وإنما كان الأمر طبيعياً , حيثكانت وما زالت للحروف العربية قدسية خاصة على اعتبار أن القرآن الكريم قد نزل بها . ونظراً لطواعية هذه الحروف ومرونتها في التشكيل الفني , فقد تبارى الفنان المسلم في ابتكار العديد من أنواع هذه الخطوط , التي مازال كثيراً منها على العمائر الإسلامية شاهداً على عبقرية هذا الفنان . وقد تعددت مواقع النقوش الكتابية على العمائر وتنُّوع مضمونها حسب وظيفة المنشأة , فمنها ما هو نصوص تأسيسية لتسجيل ماهية المنشأة واسم صاحبها مع ذكر ألقابه وتاريخ الإنشاء , وعادة ما تعلو هذه النصوص التأسيسية المداخل الرئيسية أو المداخل المؤدية لبيوت الصلاة أو الإثنين معاً , كما تضمنت أيضاً بعض الآيات القرآنية والأحاديث والمدائح النبوية , وغالباً ما كان يزّين بها الفنان الجدران الداخلية للجوامع والزوايا . طغت النقوش الكتابية على غيرها من العناصر الزخرفية وسادت معظم المنشآت المعمارية في العصر العثماني وبصفة خاصة في دمشق , سواء كانت نقوش خارجية أو داخلية , فقلما نجد جامعاً خلت جدرانه من نقش كتابي, إلا أن يكون قد جُدِدَ حديثاً أو أُعيدَ بنائه كاملاً ومع انتشار استخدام البلاطات الخزفية ذات الزخارف المتعددة والألوان المتميزة في زخرفة منشآت العصر العثماني , أصبحت النقوش الكتابية تأخذ أسلوباً وطابعاً خاصاً ميّزها عن غيرها , كما كانت للمعتقدات الدينية الخاصة لدى العثمانيين وسلاطينهم أثرها الواضح في ظهور نسق جديد للنقوش الكتابية على العمائر متمثلاً في ظهور النظم الشعري , الذي أصبح سمة هذا العصر . لقد سجلت النصوص التأسيسة عن طريق الأبيات الشعرية التي تتضمن تاريخ الإنشاء أو التجديد بنظام حساب الجُمَّل , إلى جانب عبارات المدح والثناء , كما وردت الأشعار الخاصة في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) كأبيات البردة للبوصيري , وكذلك نُظِمت أبيات في إطراء الشخصيات البارزة في المجتمع من الولاة والوزراء وسادة الطرق الصوفية وشيوخهم. ومن خلال دراستي لهذه النقوش الكتابية المتنوعة وجدت بعض الأخطاء التي جاءت

---

* باحث دكتوراه فى الاثار الاسلاميه – كليه الاثار – جامعه القاهرة

** ملخص البحث ولم يقدم البحث للنشر بكتاب المؤتمر ٢٠٠٨م.

نتيجة أسباب متعددة منها ؛ اهمال بعض الخطاطين , فجاءت بعض النقوش وقد احتوت على أخطاء إملائية إلى جانب التصحيف الواضح , كما كان هناك دور للخزّاف في عدم الإلتزام بتنفيذ بعض كلمات الكتابات المطلوبة , ويرجع بعض هذه الأسباب أيضاً إلى عيوب تثبيت بعض اللوحات التي تتألف من تركيبات خزفية حيث ارتكبت بعض الأخطاء الفنية من قص متعمد لأطراف بعض البلاطات دون أي اكتراث بما تحتويه هذه البلاطات من نقوش كتابية. أما السبب الأخير فيعد أخطرها وهو مساوىء إعادة تجديد وترميم هذه النقوش الكتابية في ظل غياب متخصص في الكتابات والخطوط العربية . ويتضمن هذا البحث نماذج من هذه الأخطاء , كما يتضمن قراءة صحيحة لبعض النقوش الكتابية التي جانب بعض الباحثين فيها الصواب في كل من جامع السلطان سليم الأول (٩٢٤هـ / ١٥١٨م) , وجامع سنان أغا (٩٧٢هـ/١٥٦٤م) , وجامع مراد باشا(٩٨١هـ /١٥٧٣م) ،وجامع درويش باشا(٩٨٢هـ/١٥٧٤م) ،وجامع سنان باشا (٩٩٩هـ/١٥٩٠م) ،والمدرسة السليمانية (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) ،ومدرسة اسماعيل باشا العظم(١١٤١ هـ/١٧٢٨م) ، ومدرسة سليمان باشا العظم(١١٥٠هـ/١٧٣٧م) ،وكذلك مدرسة فتحي الدفتردار(١١٥٦هـ/١٧٤٣م) , ومدرسة عبد الله باشا العظم(١١٩٣هـ/١٧٧٩م) , والزاوية الصمادية (٩٣٢هـ/١٥٥م) , وزاوية أبي الشامات(١٣٠١هـ/١٨٨٤م) ،والسبيل الملحق بجامع الورد (١٢٥٨هـ/١٨٤٢م) في دمشق . كما يتضمن البحث أيضاً تصحيح الوضع الحالي لبلاطات لوحة تأسيس السبيل الذي يتصدر الجدار الشمالي من صحن جامع سنان باشا(٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) والتي كانت تتألف من عشرين بلاطة , وقد سقطت هذه البلاطات قبل سنة ١٩١٧م وفقد منها اثنتان ، ثم أعيدَ تركيب اللوحة بدون هاتين البلاطتين ونتج عن ذلك تشويه الشكل العام للوحة إلى جانب اضطراب السياق العام للنص فضلاً عن تخبط بعض الباحثين سواء العرب أو الأجانب في محاولة قراءته , فجاءت بعض الاستنتاجات خاطئة , ومن ثم بنيت عليها دراسات غير صحيحة , ومازالت بعض الأبحاث الحديثة تفتقي أثر هذه الدراسات السابقة دون أدنى محاولة تمحيص لما تم نشره في هذا المجال .